الأخ الأديب
حاتم عبد الهادي
مع خالص اهدائي
٢٢-٦

المـــــوت ضحكـــا

محمـد الحـديـدى

قصص قصيرة

١٩٩٧

إهـــــداء

إلى أبى الذى اعطانى كـثـيـراً

وأمى التى أرضـعـتـنى الحب

وأجـمـل زهرة فى بسـتـان

حـيـاتى ابنتى نورهان

وصـديقى الراحل عن الدنيـا

ولـن يـرحـل عـن قـلـبـى

نبـيـل مـوافى المحـامى

نبـيـلاً .... ووفـيـاً

مـحـمـد

مقدمـــــــه

تضم مجموعة القصصى الواعد محمد الحديدى «الموت ضحكاً» خمس عشرة قصه ، وهو واحد من أولئك المبدعين الذين قطعوا شوطاً بعيداً نحو الكمال وأصبح لهم أسلوبهم القصصى الجذاب ، وتأتى جاذبية القصص هنا من عدة منطلقات مُعجِبة وأخاذه فى مقدمتها النزعة الواقعية الإجتماعية التى تغوص فى أعماق مجتمعنا ، وتلتقط من صوره المُعاشه عالماً جديراً بالإهتمام من أمثال قصص « طبق فول - الموت ضحكاً - كفر البُسطاء - النخلة القصيرة ، حكاية البنت هبه - عناقيد الوهم » لما تحويه من شخصيات شعبية مثل « طُلبه - الشيخ طنطاوى - أبو عكاشه - المعلم فكرى - أبو ليلى - عوف الكاورك » ، وهى ضاربة فى الشعبية تذكرنا بشخصيات « تشارلز ديكنز » الإنجليزيه التى تقيم فى الأحياء الشعبية ، أما الصراع فهو صراع نامٍ متصل يأخذ القارىء إلى عالم من التحليل والتعليل ، يطرح عدة تساؤلات عما يدور فى مجتمعنا من أمثال التناقضات الإجتماعية التى تأخذنا إلى نزعة نقدية غير مباشرة وتترك للقارىء مساحة جيدة للتفكير والإلتحام بالكاتب ، علماً بأن هذه النزعه النقدية فيها الهدوء ، والإختصار بطريقة مُعجِبة ولافته للنظر ، والمنولوج الداخلى أو النجوى نصيبها المتع فى قصص محمد الحديدى حيث تغلب هذه

السمه على عالمه الداخلى وعالم شخصياته ، ويزاوج الكاتب بين الواقعيه والرمزية كما الشأن فى قصة « حدث مع هذا الكلب » فتركنا مملوئين بالإعجاب والتقدير لإسلوبه الجذاب ومعالجته الطريفة ..

ولمحمد الحديدى فى الحقيقة أسلوبه المتجدد الملىء بالجاذبية ، الذى يركن إلى جودة التصوير وخصوبة الخيال مستخدماً سرديه تلقائيه فى مواضيعها ويلتقى أسلوب الحديدى بالملتقى فى نقطة وسط ، ما أن يعمل فيها جهداً حتى يصل إلى ما يريده القصصى ويقصده وهذا أمر هام للعمل الأدبى الناجح .

ولغة الكاتب هنا لغة قوية الأداء عالية التعبير ناجحة فى حمل أفكاره وعواطفه إلى مدى رفيع المستوى يكشف عن سعه ثقافته وبصره بما يحتاجه العمل الأدبى وما يفرضه على الفنان من أعباء وفى الخاتمة فلقد استمتعت حقاً بقراءة هذه الأعمال القيمة فوجدتنى أمام واحد من كبار الكتاب الذين يشرق سريعاً نجمهم فى أدبنا الحديث وتمنياتى له بالمزيد من التوفيق واترك الباقى لبطل الساحه الأدبية وهو القارىء ...

دكتور / محمد موسى خشبه
استاذ الأدب بكلية دار العلوم جامعة القاهرة
وكلية المعلمين بالمدينة المنورة

حدث مع هذا الكلب

..وكنت كلما رأيت هذا الكلب أستشيط غيظاً .. فتأخذنى حمرة عينيه إلى هوة سحيقة أحار فى عمقها وإتساعها . تعددت محاولاتى للقضاء عليه .. فى كل مرة كنت أعود محملاً برايات إستسلامى اللانهائية .. كنت أبغض ما أبغضه فى هذا الكلب نباحه المشتعل دوماً .. أرهقتنى هزات ذيله المتلاحقة عبر نتوءات مخاوف تنبثق من أعماقى فأبدو مسلوب الإرادة .. محطم القوى .. ولم يكن أمامى من سبيل إلا الشرود فى بحور التفكير .. صرت أعبث بين دفاتر أفكارى تحديداً لما أبغى فعله من أجل وصولى إلى أقرب نقطة عبور إلى بغيتى المنشودة ، نباحه يمزق صمت شوارع مدينتنا الهادئه .. قمت فزعاً متوجساً خيفة أن يرحل قبل أن أهشم رأسه .. خبأت نفسى خلف حائط صغير يفصل بينى وبين جيراننا .. أحكمت القبضة على السيخ الحديدى السميك بين يدى .. رمقته بنظرة تتخللها كل آيات السخط . وما أن إقترب منى ودون أن يرانى هويت بالسيخ على أم رأسه فارتطم بالأرض محدثاً صوتاً مكتوماً وعميقاً .. فاحت من خلال أعضائى كل ما يستطيع المرء وصفه من أبشع ما يقال عن ثورات الغضب عبر القرون التى إندثرت تحت أنقاضها ملايين البشر .. تملكتنى الحيرة بين ذراعيها .. فصرت فاقد الوعى ولم يكن أمامى إلا أن أرفع راية أخرى لتزيد رايات

إستسلامى .. أحسست بجوع شديد .. أسرعت فى إتجاه المطبخ وعدت ممسكاً بآخر قطعة خبز من الرغيف الأخير .. مزينة بآخر ما تبقى من الشطة الممزوجة بالفلفل الأسود وبعض الملح الناعم . جرجرتنى النيران المنبعثة من فمى الذى إشتعل حيث كوب الماء الذى يشكو قلة حيلتى لرب السماء .. ألقيت الكوب .. إرتسمت على وجههى بعض صور الإستنكار مما يفعله هذا الكلب الملعون ..

لماذا أخافه .. ؟

ولماذا أنا بالذات دون سائر خلق الله .. ؟

رحت أبعد شبح الخوف عنى .. وما أن تراءت أمام عينى صورة جسده الضخم وعينيه الغائرتين الغارقتين فى لونهما الأحمر الملتهب حتى أصابتنى رجفة شديدة . لم ينقذنى منها سوى تيارات النوم التى جرفتنى .. إنتشلنى نباحه المتواصل والذى كان أشبه بعواء ذئب عاتٍ من نومى الحائر بين الغفلة واليقظة .. حدثت نفسى .. لاشك أنه جائع .. غرست "إبرة حياكة" صدئه فى قلب لقمة خبز .. إقترب نحوى بتخاذل .. قذفت اللقمة أمامه متحيناً فرصة أن يلتهمها فتستقر الإبرة فى سقف فكه العلوى فيموت بعد أن يتذوق طعم علقم غضبى وسخطى عليه .. إلتقط اللقمة بشراهة . وقبل أن يلتهمها تفحصنى بنظرة حادة .. أشم من خلالها أنى لست مُحل ثقته .. طرح اللقمة ارضاً وجرى .. صفعنى دهاء هذا الكلب ..

ورحت ابحث له عن وسيلة أخرى للفتك به والأنتهاء مما أعانيه من غيظ مكتوم الصوت يمزق أعماقى المتهاوية على جدران ذاتى .. يالها من نداءات تبحث عن مجيب يخلصنى من هول ما أعانيه هاهى السماء قد كشرت عن أنيابها معلنة غضبها فصارت شوارع مدينتنا الهادئة بمثابة أفرع لبحيرات صغيرة إحتوت كل الأشياء .. توقف عقلى عن التفكير كما توقفت الحياة فى أحشاء مدينتنا .. يأتى نباحه من خلف جدران المنازل المجاورة خافتاً وكأنما يعلن من خلاله راية إستنجاده بأى شىء .. لمحته وسط محاولاته الفاشلة لعبور البحيرات التى صنعتها عين السماء الباكية . وثبت إلى ذهنى فكرة تمنيت أن تكون الأخيرة للنيل منه .. رغبة منى فى خلاصى من كل ما أكنه من سخط على هذا الكلب لما يعترينى من غضب قد إحتواه قلبى المتعب .. ها هو يقترب منى وقد إنطفأت حمرة عينيه وتحجرت كل معالم بطشه .. إنتباتنى رغبة شديدة فى تمزيق كل رايات ضعفى أمامه ، فالمسافة بينى وبين ما أريد ليست بعيدة فتحت بابى المرتجف مثلى . فدخل مرتجفاً هو الآخر .. وكأنما قد أتانى يعلن عن رغبته فى التكفير عن كل ما سببه لى من هواجس الخوف الذى طالما إعترانى .. رقد جوار « الراكيه » خلف الباب .. تركته وشأنه للحظات رغبة منى فى التمويه عليه .. إستشعر دفئاً .. بكل هدوء رقد على السرير جانبى .. تقبلت منه

ذلك حتى أنال مأربى .. جعلت أصابعى تروح وتجىء بحنان مصطنع على ظهره .. أغمض عينيه مسترخياً فاحتوانا غطاء واحد .. غرس « بوزه » فى وجهى وكأنه قد وافق على معاهدة الصلح بينى وبينه .. تجرعت أنفاسه الساخنة بكل إستياء .. راح فى سبات عميق .. غمرتنى نشوة الفوز وإحتوتنى آيات أمنيتى المنشودة .. رحت استرجع كل ما عانيته بسببه .. فقرأت سطور سخطى عليه خلال كل الشهور الماضية ..

« لابد من الخلاص » ..

قلتها فى نفسى وماذا يمنعنى .. ؟

ها هو غارق فى النوم وها أنا فى قمة تحفزى وإستعدادى استجمعت كل ما أملك من قوة .. نشبت أظافرى فى عنقه الضخم دون أن أسترحم النداءات المنبعثة من نباحه المكتوم بين يدى وجدتنى مبصوقاً على الحائط .. تلونت أظافر يدى باللون الأحمر بينما كانت زوجتى تصرخ بأعلى صوتها محاولة وقف نزيف الدماء المنهمرة من عنقها .. تلاحقنى بكل صور الإنفعال الممقوت « هذه ليست المرة الأولى التى تحاول فيها قتلى » تحطمت أعصابى .. خارت قواى .. هويت على الأرض .. إحتوتنى رغبة جارفة فى أن أفعل شيئاً ما ..

الموت ضحكاً



دائماً ترسم لى الصدفة مقابلته .. كأنما يخرج من عباءة الليل الحالك أو من خلال إنفلات خيوط الصبح حينما أصحو مبكراً .. رأيته بجلبابه المتهرىء وشعره المجعد ووجه العابث دائماً .. أشفقت على حالته الميئوس منها :

« إلحقنى ياعم »

قالها والدمعات الساخنة تنساب من مقلتيه التى يسكنها حزن من نوع غريب .. صرخت فى وجه أولاد الحارة الملتفين حوله فعادوا أدراجهم مشاكسين ..

(يا « طلبه » روّح .. أمك إتصلحت) ..

سار بجانبى .. تحيطني نظراته بآهات مكتومة الصوت .. ربَّت على رأسه .. أخذ السيجارة القابعة خلف أذنه اليمنى .. أخرجت علبة الثقاب .. أشعلتها له .. تركنى ومضى .. حيث شجرة الكازورينا العتيقة على جانب محطة القطار ..

عند عودتى من العمل .. إنتابنى إحساس بضرورة الإطمئنان عليه حيث كان قابعاً .. ألقيت علية نظرة .. ناديته :

« ياطُلبه .. تعالى »

أسرع نحوى .. تشيعه الوجوه الرخامية بنظرات جامدة .. بصعوبة بالغة أقنعته بضرورة أن ينتظرنى تحت شجرة الكازورينا حتى آخذه

معى فى المساء إلى بيتى .. تنهد بصعوبة وراح ببصره كأنما يسترجع شيئاً .

أتت ابنة العشرين ربيعاً تحمل بين يديها "صينية" بها أطباق مملوءة حتى آخرها بالأرز واللحم .. وضعتها أمامه .. فتغيرت ملامح وجهه اخذ فى صب اللعنات على كل نساء العالم ...

سعل سعالاً حاداً ووضع رأسه بين يديه كأنما يعانى من صداع شديد .. ثم مسح انفه بذيل جلبابه قائلاً :

« جعان يا عم أحمد »

سرنا معاً .. حيث مطعم « أبو سيد أحمد » على رأس ميدان الساعة كان يأكل بنهم شديد كأنما لم يذق طعاماً منذ سنوات عمره الماضية .. ندت عن وجهه إبتسامة ثم تفوه :

« عايز شاى وسيجارة »

معاً كنا على مقهى « الشبراوى » .. إرتشف كوب الشاى فى رشفتين .. أشعل سيجارة . وظل يتابع خفافيش دخانها المتصاعد حتى يصطدم بالحائط المجاور لنا .. فيضرب الحائط بيده ويضحك عالياً .. تركنى ومضى على أمل اللقاء .. فى المساء وفى طريقى حيث يقبع .. حبات البرد الشديد تلسعنى فأحكم البالطو المصنوع من الصوف على جسدى .. زادت تيارات شفقتى عليه ..

نائماً كان تحت شجرة الكازورينا ..

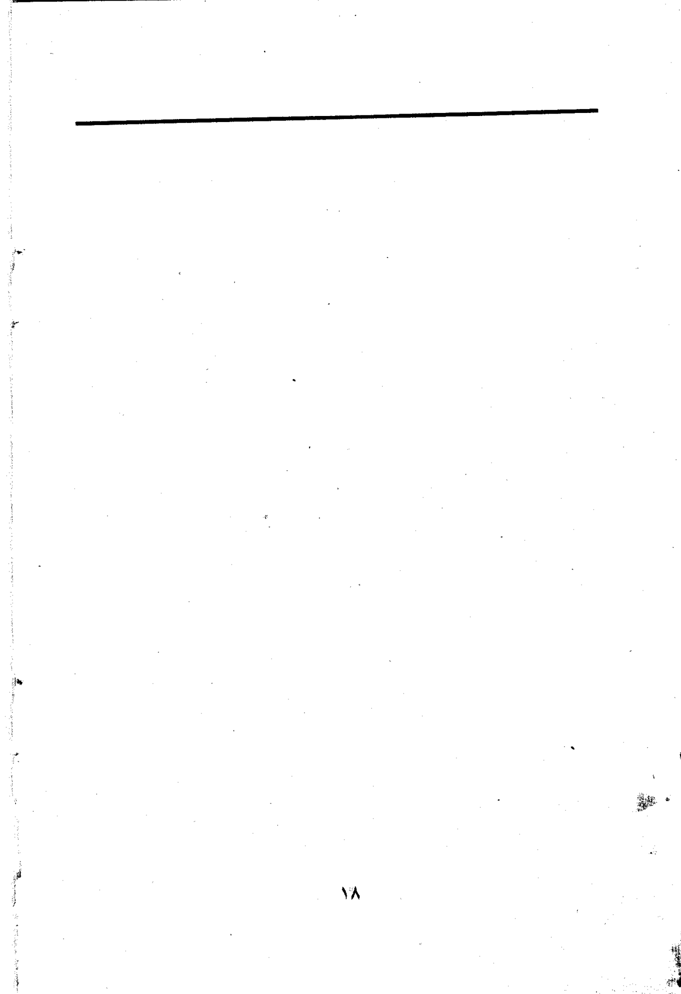
صوت القطار يأتى من بعيد .. يأخذ رفاق طريقه ويرتحل .. أدنو من « طلبه » :

- قوم يا « طلبه » ما تنامشى فى البرد ده .

لم يسمع ندائى .. وضعت يدى على وجهه .. صار كلوح الثلج اقترب بأذنى من قلبه .. النبض توقف .. انظر إلى وجهه فيبدو كما لو كان ضاحكاً .. اصرخ :

- " جيت علشان أخدك معايا يا «طلبه» .. حاول تسمعنى .. وماتسبنيش " ...

كان الليل قد أرخى سدوله على المكان بأسره .. فأختفت خضرة الأشجار .. خفتت الأضواء من حولى .. صرت شارداً عبر نتوءات أفكار مبهمه .. لا ألوى على شىء .. أصبحت خطواتى كخطى طفل يتيم .



فيضان

تناثرت حبات التراب فوق رأسها .. نظرت إلى سقف حجرتها الوحيدة أشعلت عود ثقاب وأضاءت اللمبة « نمرة ١٠ » فبدت الأشياء شاحبة .. أمسكت « بالكوز » وغطته فى « الزير » شربت .. قرأت اسمها المكتوب على الحائط ذى اللون الأصفر البالى .. « وداد » .. نقشه أبو الأولاد منذ سنوات طويلة ماضية .. قامت بجسدها المترهل .. راحت تخطو ببطء .. أشعلت «الوابور» .. راحت تقمع « البامية » ..

« الوقت تأخر وسالم لم يأت » ..

قالتها فى نفسها .. فتحت ضلفة الدولاب .. أمسكت بفستان زفافها .. وقد تغير لونه .. حاولت إزالة أثر لون أحمر صامد على الصدر .. إجترتها الأيام والليالى حيث كأس الشربات التى وضعها «سالم» على شفتيها فتقاطر منها ما صنع ذلك الأثر .. لامست بيدها طبقاً به بعض حبات الليمون الأخضر :

« ثوانٍ وسأحضر لك كوب الليمون يا سالم .. »

راحت تدس أصابعها بين ملابسها .. قطعة قماش اقرب ما تكون إلى اللون الأبيض .. عليها بقع حمراء قديمة .. قبلتها .. ضمتها إلى صدرها .. راحت تسترجع أياماً غابرة ...

« هكذا فعلت ليلة الزفاف يا سالم .. »

ورقة قديمة تمزقت أطرافها .. أمسكت بها .. أخذت تقرأ :

« وأنا يا حبيبتى لن أتأخر كثيراً .. وإننى بلاشك سأعود .. انتظرينى ..

ولن يطول إنتظارك .. ربما اليوم أو غداً ..

دمعتان حائرتان على خديها .. رمقت صورته أعلى الحائط « أحبك كثيراً يا سالم »

اخذت تعيد ترتيب الحجرة .. طرقات خفيفة على الباب .. فتحت .. دخل ابنها الأكبر حاملاً ابنه الصغير ..

قالت وهى تطعم حفيدها بلقيمات متتالية :

« تشبه المرحوم جدك كثيراً يا سالم »

عناقيد الوهم

همّ الرجال مسرعين . قاصدين مقهى « أبو سعدة » على رأس الحى ، ملبين دعوة المعلم « عبد القوى » فى لقائه الشهرى بهم .. وما إن توالت الأفواج صوب المقهى حتى ندت عن وجه «أبو سعده» إبتسامه حائرة .. قام بجمع الكراسى الخشبية المبعثرة فى أرجاء المقهى حتى جعلها فى شكل دائرى . داعياً الله أن يطيل عمر المعلم «عبد القوى» وأن يحفظه من كل مكروه .. المقهى قد دبت فى أوصاله الضوضاء والحركة ورائحة السجائر والدخان تعلو رؤوس الجالسين . للحظات صامتة . توقف الرجال خلالها عن الكلام والضحك ، حيث لف المكان بأسره صمت عجيب .. هبوا واقفين لمقابلة المعلم «عبد القوى» وقد إقترب منهم مبتسماً نصف إبتسامة تتناسب مع مكانته لديهم ...

كان المعلم « عبد القوى » طويلاً أقرب ما يكون بمسلة يتلاقى طرفا شاربه أسفل ذقنه .. مرتدياً جلبابه الفضفاض الرمادى الغامق والمصنوع من الصوف الخالص .. كانت عمامة بيضاء .. مزخرفة بألوان جذابة فى تناسق حول عنقه .. إنحنى الرجال مقبلين يديه الغليظتين ووجهه النابض بملامح الرجولة الصارخة .. إقترب منه « أبو سعده » رافعاً يديه للسماء .. داعياً له بالصحة والعافية وطول العمر . جلس المعلم فبدا كتمثال أثرى منقوش بأيدٍ فرعونيةٍ

أصيلة .. إلتف الرجال حوله مرحبين به .. محتفين بقدومه .. فهو بالكاد استطاع أن يقتطع جزءاً من وقت زوجاته الأربع القابعات فى بيته الواسع الشاهق .. بيديه صفق مرتين آمراً بتقديم المشروبات وحجارة المعسل لجميع الرجال على حسابه الخاص .. رفعوا أيديهم للسماء فى شكل أوتوماتيكى داعين الله أن يمنح المعلم الصحة والعافية وطول العمر .. داعب المعلم « عبد القوى » شاربه الأسود الكثيف بأصابعه الطويلة الغليظة بعد إحساسه بالنشوة والحيوية .. راح يقص عليهم ما حدث له من مواقف صعبة قد تعرض لها فى الأيام الفائتة وكيف أنه وحده ودون الإستعانة بأحد قام بالقضاء على عدد كبير من قطاع الطرق واللصوص . تفحص بطريقته الخاصة ملامح وجوه الرجال المحيطين به فقرأ فى عيونهم آيات الإعجاب . تأكد له ذلك عندما ألحوا عليه أن يحدثهم عن أصل عائلته الكريمة وسلالته الطيبة .. تثاءب المعلم « عبد القوى » رافعاً حاجبيه إلى أعلى وقال :

أما عن جدى الأكبر « عبد الجبار » رحمه الله .. رفع الرجال أيديهم للسماء .. داعين الله أن يرحم جد المعلم وأن يدخله فسيح جناته .. واستطرد قائلاً :

كان يخشاه طوب الأرض .. وما إن مر على قوم حتى هبوا واقفين يملأ قلوبهم الرعب خشية أن تمتد يده إليهم بما لايحمدون عقباه ...

كان رحمة الله عليه يكفيه أن يرمق أى إنسان مهما كانت قوته بنظرة واحدة فيهوى على الأرض صريعاً طالباً منه الصفح والسماح.- كان « أبو سعده » واقفاً فى نهاية المقهى فرمقه المعلم «عبد القوى» بنظرة قوية فهب مسرعاً باحضار كرسى قد تصلبت أرجله وجلس مع الرجال رافعاً يديه للسماء داعياً الله له بالصحة والعافية .. امسك المعلم بعصا غليظة كانت بجواره ..

"أما هذه فهى عصا والدى" ..

فقام الرجال مقبلين العصا الكريمة والتى كانت تمسك بها يد الرجال الذى أنجب لهم فارساً عظيماً ورجلاً قوياً مثل المعلم « عبد القوى » فما كان من المعلم إلا أن أبتسم واستطرد قائلاً .. : هذه العصا ما كان يسمع بدقتها على الأرض أحدً إلا وإنتفض من مكانه مرتجفاً ...

كان الأطفال قد جاءوا يستطلعون الأمر بفضول متصنعين إلتقاط أعقاب السجائر وأغطية زجاجات المياه الغازية ... رمقهم المعلم «عبد القوى» بنظرة ساخطة فما كان من « أبو سعدة » إلا أن طار وراءهم شاتماً آباءهم وأمهاتهم :

« امشوا يا أولاد الأبالسه الله يخرب بيوتكم »

كان المعلم قد إعتدل فى جلسته مسترسلاً فى الحكى ..:

أما انا والعياذ بالله من كلمة انا فقد قمت بأعمال كثيرة لدرجة أن

ما فعله عنتر بن شداد العبسى لا يعد صفراً على الشمال بجانب ما قمت به من أعمال يصعب عليَّ حصرها .. كان أحد الأطفال قد ألهبته سياط لسان « أبو سعده » فدخل يتلصص متسللاً من الباب الجانبى للمقهى زاحفاً تحت الكرسى قاصداً المعلم « عبد القوى » الذى أخذه الحماس فى الحديث عن بطولاته .. أخرج الطفل من جيبه فأراً بلاستيكياً متصلاً بخيط رفيع .. بأصابعه الصغيرة أمسك بطرف الخيط . فجرى الفأر البلاستيكى على الأرض وما إن لامس إحدى قدمى المعلم « عبد القوى » حتى إنتابته هيستيريا مريبه وولى فراراً خارج المقهى كالذى به مس شيطانى وسط دهشة وذهول جميع الرجال الغارقين فى الضحك .

تجرعت الصبر كأساً مُرَّه حتى إنتهت الأغنية .. فكان صوت المغنى أقبح من هيئته .. وكان دائم القفز على خشبة المسرح .. دائم التلويح بوجهه الممصوص يمنه ويسره كالذى مسه الشيطان .. لم أحتمل ذلك الهرج . تركتهم يصفقون له بشغف .. إنسلخت عنهم بعيداً وقد تملكنى الألم .. فجأة .. أحسست بيدين غليظتين قبضتا على كتفى تلفت .. فاذا برجلين .. أحدهما طويل .. يرتدى جلباباً .. تحيط برقبته عمامة ناصعة البياض .. والآخر قصير له شارب أسود فاحم .. يرتدى سترة بيضاء وبنطلوناً قد أصابه التمزق سألنى الطويل باهتمام :

- ما اسمك .. ؟

قلت متعجباً

- اسمى « السيد السعيد »

اخذ القصير يفرك فى عينيه ثم قال :

- انت متهم .. !!

قلت بسخرية ممزوجة بدهشة :

- متهم .. ! بأية جريمه ... !!

كان الطويل قد أخرج ورقة من جيبه أخذ يقرأ :

أنت متهم بعدم التصفيق مع الجمهور

قلت حائراً :

- وماذا فى ذلك من جرم .

قال القصير بعد أن تثاءب :

- ذلك يعنى أن الغناء والموسيقى لم يحوزا إعجابك

قلت ساخراً :

- هذه هى الحقيقة ... لم يعجبنى الغناء ولا الموسيقى عندئذ لم أشعر بشىء .. وجدتنى واقفاً فى مكان ضيق مغلق .. تتناثر فيه بعض الكراسى .. وكان يجلس أمامى المغنى والموسيقار . ظلا يتبادلان كؤوس الخمر فى غاية السرور والنشوة ... تناهت إلى مسامعى من الخارج آيات الإعجاب والإنبهار .. ندت عنى إبتسامة حائرة .. إقترب الرجل الطويل من المغنى .. فتبادلا بعض الكلمات .

سألنى المغنى بعد تثاءب :

- ألم يعجبك غنائى .. ؟

فقلت بثقة بالغة :

- لا .. لم يعجبنى ..

هب من مكانه فزعاً وكأنه مثقل بهموم العالم قائلاً :

- اتعرف أننى لا أتحدث كثيراً خشية على جودة صوتى ..

حاولت مناقشته .. أبى أن يحدثنى . أشار بيده .. فأمتلأ المكان بأعضاء الفرقة الموسيقية وهو على رأسهم .. صار يغنى لى وحدى .. ظل يقفز هنا وهناك .. بشكل بهلوانى مضحك .. أحسست برغبة شديدة فى البكاء والضحك والنوم .. وهو يغنى .. الأرض تدور من حولى وهو يغنى .. أروح فى سبات عميق .. وهو يغنى .



الحر يجعل كل شيء قبيحاً لا شكل له ولا طعم .. الرطوبة التى ارتفعت بارتفاع درجات الحرارة تلهو بأجساد البشر فتجعلها لزجة لهـا رائحـة نفـاذة .. كل شيء سـاخن لايطاق .. أسـقف البيـوت وحوائطها . حتى البركة التى صنعتهـا مـاسورة المياه الرئيسيـة المنفجـرة بالشـارع الكبيـر .. الكلاب اللاهثـة لا مـأوى لهـا سوى البركة .. ألقت بنفسها فيها .. كل شيء صار كما لو كان يلفظ أنفاسه الأخيرة فالوقت " بؤونة "

داخل « غـرزة » فكرى ثلاثة من زبائنها الدائمين وهى ضيـقة جداً معروشة بالعصى والبوص وسعف النخيل . جزء منها محمل على أكتاف قوائم من شجر الليمون وبعضها الآخر متكىء على السور القديم لمقابر «كفر البلاسى» .. على باب « الغرزة » تربض ثلاجة حديدية مكسوة باللون الأحمر القانى . مثبتة بالأرض وحول أرجلها كومات أسمنتية متآكلة ...

إتخذ الذباب الكثير شكل دوائر ومثلثات ومربعات على الكراسى والدكك الخشبيـة ذات الأرجل المتصلبة .. سعل فكرى صاحب المكان سعـالاً حاداً فطار الذباب فى أرجاء الغـرزة أثار ذلك « صـالح » الذى أمسك بنشتـه المصنوعـه من الخـوص . ومـال بجسمـه النحيل ملوحاً بها عسى أن يكون ذلك رادعاً للضيف الثقيل .. تحسس الشيخ « أحمد كلاى » طاقيته البيضاء الملتصقة برأسـه الصلعـاء دائمـاً .. راح يدندن بصـوته العـذب بعـضـاً من

موشحات «نصر الدين طوبار» .. قام « أبو فراج » بوضع حجر المعسل على النارجيلة النحاسية القديمة ذات القلب الخشبى الصدىء آخذاً فى الكركره ...

حانت من الشيخ «أحمد كلاى» إلتفاته إلى « فكرى » الذى أخرج من جيب جلبابه زجاجة وضع بعض نقاط فى فمه ليسكن بها آلام « الربو المزمن » ..

انطلق الصوت من خلال المذياع القديم المعلق وسط « الغرزة » معلناً الثانية ظهراً ...

قال « صالح » بعد أن تفحص وجوه الجالسين الواجمه :

- جرى ايه يا اخوانا .. حد يتكلم أو حتى يلاعبنى دومينه ..

إنتشلت كلمات صالح أبا فراج من غفوته وبادره :

- تعالى الاعبك يا صالح ..

راح الرجلان يخطان بقطع الدومينو خطاً أفقياً وآخر رأسياً دخل « أبو ليلى » بشعره الكث الملفوف الذى تعلوه الأتربة .. وجسده الضخم وقدميه العريضتين الحافيتين مرتدياً جلباباً متربا تحته صديرى بنى اللون واضعاً « أوزة » تحت إبطه . كان قد ربطها من ساقيها بحبل قصير مصنوع من القش . إجتر كرسياً آيلاً للهلاك . جلس يمسح عرقه المتصبب على جبينه بذيل جلبابه فزادت الخطوط المتربة على وجهه بأشكال متقاطعة ..

وبينما صالح وأبو فراج منهمكين فى لعبة الدومينو خلع الشيخ

« أحمد كلاى » طاقيته فبدت رأسه كما لو كانت حبة بطاطس كبيرة الحجم .. أخذ فى مسح العرق الذى إتخذ من رأسه شكلاً دائرياً وقال :

- بكام الوزة دى يا « أبو ليلى » بالصلاة على النبى ..

فتح أبو ليلى أزرار صديريه قائلاً :

- بعشرين جنيه بالعافية

قام المعلم فكرى من مكانه وحمل الأوزة بين يديه وتفوه :

- والله يا بلاش

فقال الشيخ « أحمد كلاى » مترحماً على العشرين جنيهاً وكأنما قد خرجت من جيبه الخاص .

- عشرين جنيه كتير .. وزة بعشرين جنيه ..

حاول أبو ليلى أن يعدل من حال كرسيه الجالس عليه وقال :

- ولا مليم دفعته من تمنها والله العظيم ..

أثارت كلماته فضول « صالح » وهو يطرقع قطع الدومينو على الترابيزة الوحيدة المتهالكة ..

- امال جبتها إزاى يا أبو ليلى .. ؟

رد الشيخ « أحمد كلاى » على تساؤل صالح بعد أن تثاءب ,

- يمكن هدية

قال أبو ليلى بعد أن تنهد بعمق
- لا هدية ولا حاجة .. أنا خدتها من تاجر معرفه وكل تلات ح أديله أثنين جنيه ..
ضحك الجميع فقام « أبو فراج » من مكانه وسحب كرسياً وجلس بجانب « أبو ليلى » وطلب من الجالسين أن يقتربوا ففعلوا ثم قال :
- وأيه رأيك فى اللى يخليك تروح بيتك من غيرها .. ؟
.غضب أبو ليلى معلناً صوت استيائه ورفضه . وحمل أوزته تحت إبطه وشرع فى المشى لولا أن قام « أبو فراج » وأمسك به ثم أخرج من جيبه ورقة نقدية فئة العشرة جنيهات قائلاً :
- اراهنك على صندوق كاكولا : لو شربته قدام الرجالة مبروك عليك الصندوق والوزة ولو مقدرتش تشربه تدفع ثمن الصندوق وآخد منك وزتك ...
نظر « أبو ليلى » إلى الثلاجة وقطرات الماء المثلجة التى تتساقط من قاعها بين اللحظة والأخرى . ثم حانت منه إلتفاته إلى المكان كله .. قام المعلم « فكرى » لتوه ممسكاً بفتاحة الزجاجات وفتح واحدة صنع الثلج حولها شبورة بيضاء جعلت حلوق الجالسين تهفو إليها وقال :

- « أبو ليلى » قدها ونص ...
فكان كلام المعلم فكرى حافزاً لـ « أبو ليلى » ليخوض الرهان مع « أبو فراج » فشرب الزجاجة فى ثوان معدودة .. أخذت الزجاجة تجر الأخرى . والجالسون يترقبون « أبو ليلى » وقد جرع الزجاجات .. تحلب الشيخ « أحمد كلاى » ريقه وهو يعد الزجاجات الفارغة قائلاً :
- ارحم نفسك يا ابنى .. كفاية ..
لم يأبه «أبو ليلى» لكلام الشيخ « أحمد كلاى » وراح يروى ظمأه قدر إستطاعته وليكن ما يكون .. وكلما شرب زاد عطشه . وصل عدد الزجاجات الفارغة إلى ثلاث وعشرين زجاجة .. ولم يبق أمامه إلا زجاجة واحدة ..
قال صالح مشفقاً على « أبو ليلى » الذى إنتفخ بطنه :
- خلاص بقه يا « أبو ليلى » الله يخرب عقلك ...
أثارت كلمات صالح « أبو فراج » فأقسم برأس أبيه متوعداً « أبو ليلى » إن لم يشرب الزجاجة الوحيدة الباقية والفاصلة لحسم الموقف بينهما .. راح المعلم «فكرى» يهدىء من ثورة «أبو فراج» وإنفعاله وأمال رأسه بالقرب من « أبو ليلى » وأقنعه بضرورة اكماله شرب الزجاجة الأخيرة ..
اختلس « أبو ليلى » نظرة إلى أوزته الرابضة أسفل قدميه متخيلاً لوعته وخيبة أمله لو أخذها منه « أبو فراج » فتجرع الزجاجة الأخيرة بصعوبة بالغة ..

صفق الرجال فالتقط المعلم « فكرى » الورقة النقدية الملقاة على الترابيزة أمام « أبو فراج » الذى شيعها بنظرة أخيرة إلى أن إستقرت فى جيب المعلم فكرى ...

حاول « أبو ليلى » أن يتحرك من مكانه فلم يستطع . رأى الوجوه وقد كثرت من حوله . أحس بالتواء أمعائه وتحطم معدته « الغرزة » كلها تدور من حوله بمن فيها وما فيها .. أمسك بطنه بعنف مرتمياً على الأرض ... حمله الرجال إلى بيته عدا « أبو فراج » الذى جلس حزيناً ...

خفت حدة القيظ . وإنفرجت اسارير الهواء فجاء يداعب الشوارع والبيوت والحارات ....

اتى « أبو ليلى » مبتسماً وما إن رآه الجالسون حتى لاقوه بترحاب ممزوج بلوم . حامدين الله على سلامته من المأزق الذى وضع نفسه فيه .. راح « أبو فراج » يسأله بغيظ عن أوزته .. فضحك « أبو ليلى » ضحكة عالية ادار لها الجالسون رؤوسهم وقال :

« كانت سمينة قوى » ....

قتل الغيظ « أبو فراج » فصار يعانى لوغة خسارته الفادحة للعشرة جنيهات ..

امسك « أبو ليلى » بالنارجيلة متتبعاً دخانها المتصاعد فى شكل دائرى حتى يرتطم بسقف « الغرزة » .. قام من مكانه . وإقترب من « أبو فراج » .. ثم طلب من المعلم « فكرى » أن يأتيه بزجاجة كوكاكولا ...

أبو عكاشه

وقف « أبو عكاشـه » وسط المسـجـد الكبـيـر ، داعـيـاً من يرغب من عـباد الله المخلصين . الفارغين لتـوهم من صلاة العـشاء لإحياء ساحة الذكر التى يقيمها كل حين .. قام الشيخ «سيد» إمام المسجد يخطب فى الناس فضل الذكر وما يتبعه من آثار حميده .. تجمع الناس قاصدين المكان يتقدمهم الشيخ « سيد » بجسده الفارع الممتلىء وجلبابه الفضفاض الذى يخفى تحته كرشاً بدا واضحاً .. ممسكاً بيمناه فانوساً كبيراً تتوسط قاعدته شمعة خافتة الضوء . يداعبها الهواء فتكاد تنطفىء بين اللحظة والأخرى .. بعد أن رتل الشيخ « سيد » بعضاً من آيات الذكر الحكيم اصطف الرجال صفين متوازيين . وقد افترشت الأرض من تحت ارجلهم بالحصر المصنوعة من البلاستيك ذات الألوان المختلفة .. ويعلوا رؤوسهم حبلان متقاطعان علقت بهما بعض اللمبات الكهربائية ؟؟ تمايل الرجال بأجسادهم الفتية يمنه ويسره والشيخ «سيد» بينهما ينشد بما افاض الله عليه .. دار « أبو عكاشه » يوزع اكواب الشاى والقرفة واطباق الفول النابت على من هم جلوس من عباد الله .. صوت الناى يؤازره ايقاع منتظم فيزيد صوت الشيخ « سيد » جلجلة .. رنين الزغاريد يفوح بين حين وآخر فيجعل للمكان بهجة « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » ...

سيارة زرقاء يكسوها غطاء اسود حالك .. تلوح من بعيد يمتد نورها الشاحب فتبدو كما لو كانت ثعباناً بغيضاً دنت شيئاً فشيئاً من ساحة الذكر ...

نزل منها ضابط طويل أسمر يرتدى زيه المائل إلى اللون الأصفر وعلى كتفيه شريطان أزرقان ترقد فوقهما نجمات لامعة .. ورجلان أحدهما فارع الطول ذو شارب كث حالك ... وجلباب رمادى والآخر قصير عريض الوجه ثقيل فى مشيته ..توقف الشيخ «سيد» عندما دنوا منه فطلب منه الضابط أن يخرج له ما يثبت شخصيته .. فارتبك الشيخ « سيد » ليس لأنه خائف من شيء .. ولكن لأنه ابعد ما يكون عن الشبهات .. حاول «أبو عكاشه» إنقاذ الموقف باعتباره المسئول عن سلامة الشيخ « سيد » وعباد الله من أى مكروه باعتباره صاحب دعوتهم .

« مجرد ذكر لله ... »

قالها « أبو عكاشه » للضابط فاقترب الرجلان المرافقان له ويبدو التحفز واضحاً فى عينيهما وعلامات الغضب على وجه الضابط . فأشار إلى الشيخ «سيد» « وأبو عكاشه» آمراً رفنيقيه أن يصطحباهما للسيارة مكبلين بقيود حديدية .

تناثر الرجال حول السيارة يسألون عن سبب ذلك . همهم بكلمات كثيرة مبهمة لم يفهم منها إلا ... « إجراءات أمنية »

مرقت السيارة تجوب الشوارع الجانبية حتى وصلت إلى الشارع

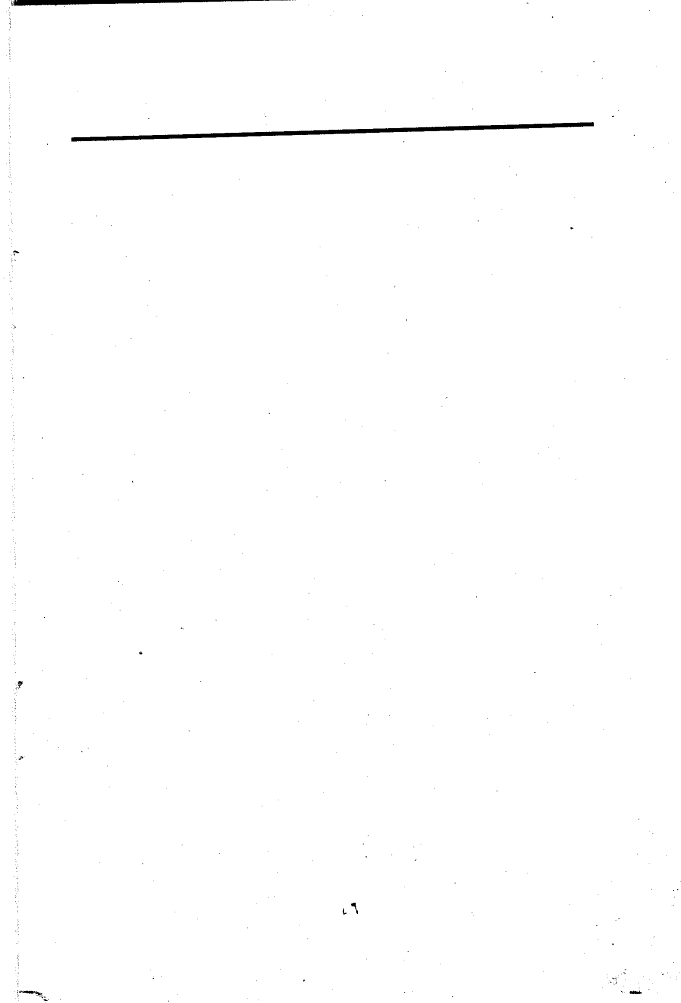
الكبير الذى انتصف بمسرح كبير ملىء بالأنوار الوهاجة ذات الألوان المزركشة الثائرة على صخب عزف موسيقى مغتصب منبعث من خـلال مكبـرات الصـوت المتناثرة والدخـان الأزرق بعلو رؤوس الجالسين .. راقصة كأنها صنعت من الحلوى تتمايل بلهفة شديدة كما لو كانت تعانى من مغص قاتل ألم بها .. شاب مطروح أرضاً تغطى الدماء وجهه .. نزل الضابط والرجلان المرافقان تاركين « أبو عكاشـه » والشـيخ « سيـد » داخل السيـارة يبسمـلان ويحوقـلان ويستغفران الله على ما اصابهما فى ليلتهما ..

علت الأصوات من خلال مكبرات الصوت لتلقى آيات الترحاب على الضابط ورفيقيه ..

رجل تفوح من فمه رائحة كريهة . جاء مستفسراً عما إذا كان هناك شىء .. ابتسم الضابط فانطفأت النجمات على كتفيه قائلاً :

« لا شىء طالما أن الأمن مستتب »

قطعت السـيـارة احـشـاء الطريق الزراعى الممـتـد وبداخلهـا « أبو عكاشـه » والشيخ « سيـد » اللذين راحا بين الحين والآخر يبسملان ويحوقلان ويستغفران الله على ما أصابهما فى ليلتهما .



ثمن التذكره

مرق القطار مسرعاً ليمزق أحشاء الشريط الحديدى . الزحام الشديد كاد يصيبنى بالقىء . بالكاد اخترقت اللحوم البشرية المتكدسة . فتاة فاتنة الجمال شاردة لاتبالى. حاولت قدر المستطاع لفت إنتباهها. لكنى لم استطع . هدأ القطار من غليانه . نزل بعض الركاب وصعد الكثيرون ،، إمرأة عتيقة تبدو هادئة ترتدى جلباباً باهت اللون . تئن من حمل جوال منتفخ . ساعدها أحد الواقفين فألقى بالجوال اعلى الشبكة فوق رأسى . تلفتت المرأة هنا وهناك . أزاحت مقطفاً لتتحكم به إغلاق الباب . خلعت جلبابها الأسود الباهت . طرحته ارضاً . جلست . اخذت تلوك بعض كسرات من الخبز الريفى وقطعة جبن . داس احد الواقفين على قدمى . تأوهت .. تأسف الرجل .. من بعيد يأتى صوت المحصل عالياً .

« كل واحد يطلع تذكرته فى إيده »

عاودت النظر حيث الفتاة لكنها ما زالت شاردة . حاولت أن اشير لها بيدى لم تفهم اشارتى .. إقترب المحصل مرتدياً زيه الأزرق متجهم الوجه .. طاعن السن .. اكل عليه الزمن وشرب .. رمقنى بعينيه الذابلتين .

قال بصوته الأجش :

- تذاكر يا اخينا .

- تفضل

نظر اعلى الشبكة فاذا بالجوال المنتفخ

- شيله مين دى ؟

تفوهت المرأة وهى تلوك آخر لقمة ..

- بتاعتى يا افندى

- فين تذكرتك

- أهه يا خويا

فتح المحصل دفتراً كان بيده وقال :

- ادفعى ثمن الشيله دى .

- كام يا خويا .

- خمسة جنيه وستين قرش .

- ده كتير قوى .

- لاكتير ولا حاجه .

- دول شوية توم وشوية بصل اخضر .

- خلصينى .. عايز اشوف غيرك .

- الفلوس اللى معايا شوية ..

علا صوت المحصل زاعقاً ولا عناً آباء المرأة وأجدادها ..

انتبهت الفتاة من شرودها .. ادركت الموقف .. دفعت المبلغ .

اعطى المحصل التذكرة للمرأة ..

يأتى صوت المفتش من بعيد :

- تذاكر يا اساتذه .. تذاكر ..

وما أن لمحه المحصل حتى أصابت الرعشة كل جسده .. اسرع نحو المرأة .

- تذاكر يا ست الكل .

- فيه ايه تانى ..

- الظاهر ان فيه لخبطة .. تذكرتك لو سمحتى ..

- خد يا خويا .. والله ما انا عارفه يوم ايه ده يا ربى ..

- يبقى الحساب خمسة وستين قرش .

- انت عايز تدفعنى خمسة وستين صاغ تانى يا راجل .

ابتسم المحصل ابتسامة مزيفة تخفى شيئاً .

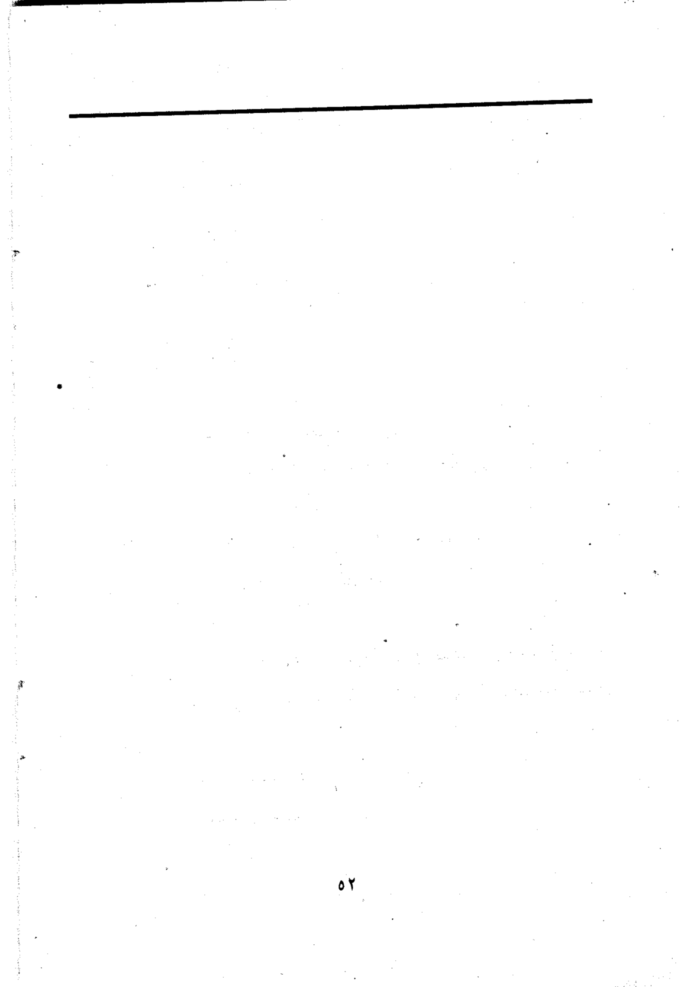
- لا يا ست ..

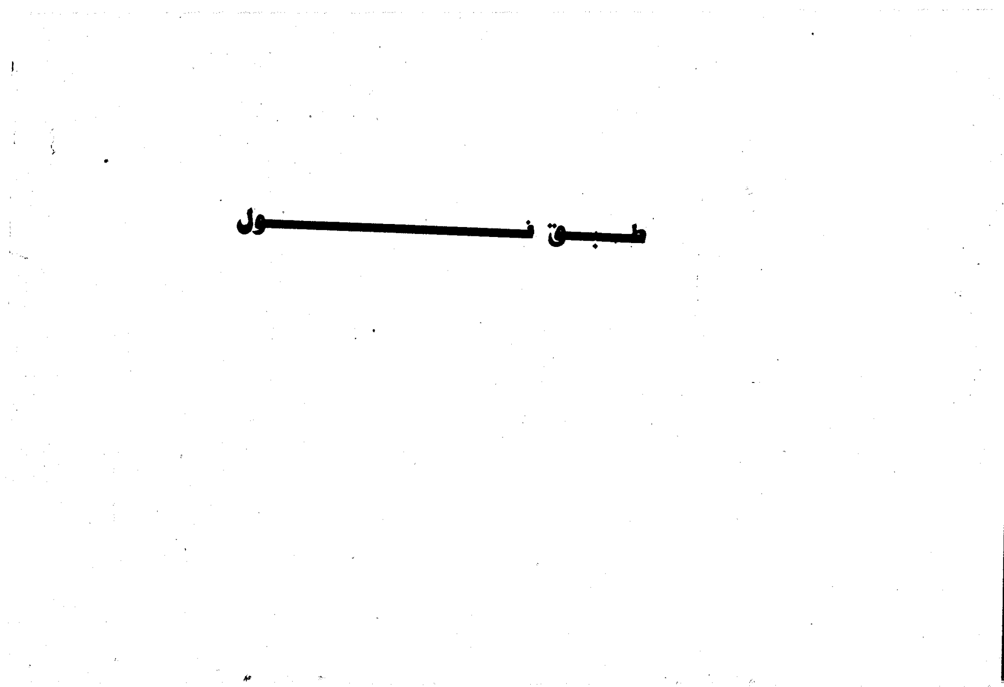
صار المفتش على بعد خطوات من المحصل فتصبب المحصل عرقاً

- يا امى افهمينى .. انا قلت لك ان تذكرة الشيلة بخمسة وستين قرش

- بس انت اخدت خمسة جنيه وستين صاغ ..

- مؤكد إنك سمعتى غلط ..





طبق نول

استيقظت فزعاً على صراخ جارتنا .. اسرعت فاذا بها تشد شعر امى .. صارت تجرجرها على الأرض وسط جمع من نساء شارعنا .. امسكت بيدى عصا طويلة .. رفعتها وهويت بها على رأس جارتنا . فزاد صراخها .. ومن خلفها ابنها الصغير الغارق فى دمائه .. يحيط برأسه شاش ابيض تفوح من خلاله رائحة البن .. بائع الفول ينادى على سلعته بصوت عال فانصرف الجميع .. كل واحدة جاءت وبيدها طبق .. كن قد تجمعن حول بائع الفول .

- والنبى يا خويا بربع جنيه ...

- وانا يا اخويا بربع واتوصى شويه

وما إن انصرف بائع الفول إلا وخيم على شارعنا صمت طويل كانت الشمس قد اعلنت تمردها .. تأهبت للرحيل .. تمنيت ان اخرج للشارع ولكن هيهات لأمنيتى أن تتحقق .. كل ما املكه .. هو ان انظر من ثقب الباب الخارجى لمنزلنا .. لا بأس .. رحت انظر بحسرة .. كان أولاد شارعنا يلعبون لعبة « ضربونا يا ابونا » وأنا أجيد هذه اللعبة .. رحت أتساءل فى نفسى :

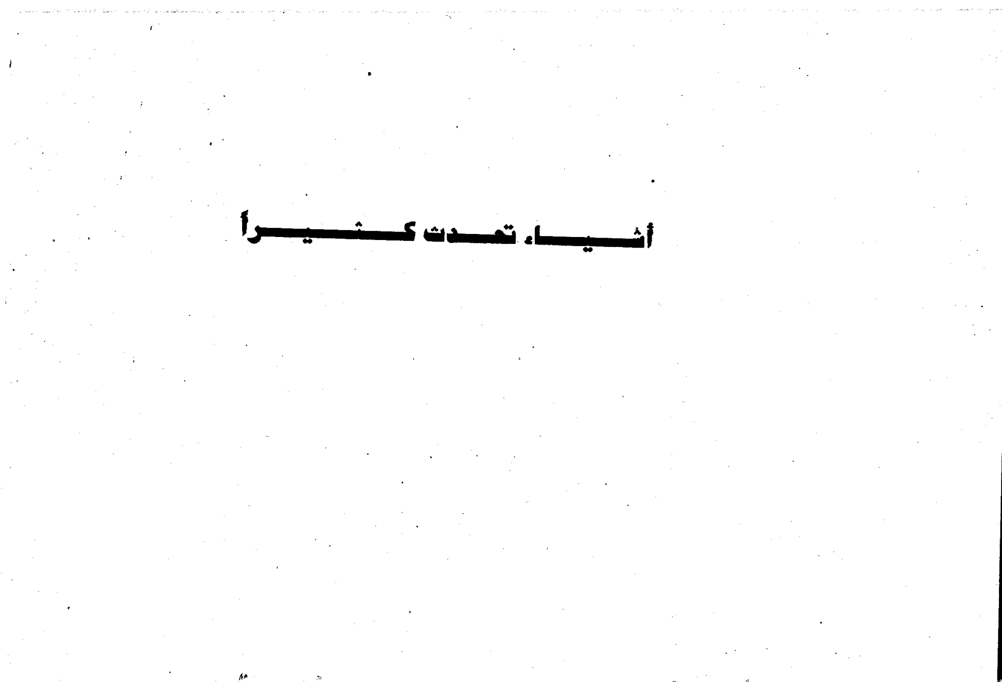
« ماذا سيحدث لو خرجت ؟ » ..

سمعت الرد يأتيني من سويداء اعماقي ..

« ستغرق في دمائك كما فعلت بابن جارتكم .. ولو .. !!

خلعت حذائي وامسكته في يدى .. فتحت الباب بحذر .. خرجت .. فاذا بيد جارتنا تلتهمني ..

أخذت تجرجرني على الأرض .. رحت اصرخ بقوة . قذفني ابنها بحجر كبير في رأسي .. جاءت امي متلهفة . لتنتشلني من يد جارتنا .. امسكت بشعرها .. اخذت تجرجرها على الأرض بعد أن مزقت ثيابها .. نساء شارعنا كن تمصمصن في شفاههن .. صوت بائع الفول يأتي من بعيد .. انصرفن جميعاً .. خرجت كل واحدة وبيدها طبق .. كن قد تجمعن حوله من جديد ..



أشياء تحدث كثيراً

تجمع رجال القرية حول « أبو حسين » الذى انهكه المرض آخذاً منه كل مأخذ .. فصار كما لو كان خرقة بالية .. أو عود قصب ممصوص .. راحوا يلوكون الحديث عنه وكيف كان يحمل أثقالاً ينأى عن حملها البشر ..

صاح « عوف الكاورك » بعد أن مسح انفه بكم جلبابه الواسع .

- الشيخ طنطاوى .. مفيش غيره هو الى عنده الدوا ..

نهض شاب فى مقتبل العمر تبدو على تقاسيم وجهه علامات فهم ما يدور حوله .

- « لازمه دكتور .... »

فما كان من « عوف الكاورك » إلا أن وخزه فى بطنه بعصا كانت بيده شاخطاً فيه

- روح ذاكر لك كلمتين .. جاتك خيبه ..

تناثرت الآراء هنا وهناك وأخيراً أجمعوا الرأى على ما افتى به « الكاورك »

حملوا مريضهم حيث الشيخ طنطاوى وكان رجلاً عفياً .. تغمره قوة غير عادية بدت من احمرار وجهه وغلظة يده .. مرتدياً جلباباً

إحتوته الوان الطيف السبعه .. وعلى رأسه طرطور ينتهي بزر وحول رقبته مسبحة طويلة تمتد إلى وسطه ... واضعاً امامه مبخرة كبيرة تفوح منها رائحة البخور الطيبة .. امسك الشيخ طنطاوى بطرف شاربه الكث الذى اتصل طرفاه اسفل أذنيه .. نظر إلى المريض نظرة احتوته من أسفل قدميه حتى ام رأسه . ثم وضع يده على بطنه وهمهم بكلمات مجهولة الهوية .

- اربطوا فى رجليه غراب عطشان الليلة وإلا ...

سعل « على خرويه » بشدة وسرسع :

- وإلا إيه ياسيدنا ..

إحتوى الشيخ « طنطاوى » جمهور الرجال مترحماً على الحالة السيئة التى وصل إليها مريضهم .. راح يلوك بآيات العتب عليهم قائلاً :

- وإلا ح يفطس ويموت .

اغتم « فرغلى » على شقيقه المطروح ارضاً بين يدى الشيخ وتفوه :

- وإيه علامات عطش الغراب .

هرش الشيخ « طنطاوى » فى رأسه وشرد لحظات ثم قال :

- ح تلاقوه واقف لوحده فى مكان واسع وفاتح بقه .

بذل الرجال أقصى ما يملكون من جهد . فبات الغراب مربوطاً فى قدمى « أبو حسين » وقد بدا على وجوههم الإرتياح مستبشرين بتشخيص « الشيخ طنطاوى »

صرخ أبو حسين من شدة ألمه .. شقت آهاته سكون الليل من هول ما يعتريه .

- بالشفا يا « أبو حسين .. »

قالها «عوف الكاورك» بزهو .. فشكره الرجال على حسن اختياره .. فالشيخ طنطاوى طيب القلب .. وصريح لدرجة كبيرة .

مع ميلاد يوم جديد وقبيل طلوع الشمس حمله الرجال ووضعوه أمام الشيخ « طنطاوى » الذى قام بدوره بذبح الغراب على رأس المريض مهمهماً بأشياء غريبة .

علا صوت « أبو حسين » متألماً فندت عن وجه الشيخ ابتسامة عريضة :

- مفعول الوصفة بدأ يسرى فى جسمه .. اطمئنوا .

تنهد « فرغلى » وقد خيمت على قلبه الراحة فأفرغ كل ما معه فى يد الشيخ « طنطاوى » .. انطلقت الأبخرة تخيم على المكان .. فصاح الرجال مكبرين .. ومقبلين يدى الشيخ وقدميه .

ارخى الليل سدوله على القرية التى عمها الصمت إلا من صراخ «أبو حسين» الذى تمرغ فى التراب.. يقضم بأسنانه كل ما يصادفه

وضع الشـاب يده على جبين « أبو حسين » فكان يغلى من ارتفاع درجة حرارة جسمه :

– خدوه ع الدكتور بسرعة .. صعد الرجال درجات السلم حاملين « أبو حسين » فى حالة سيئة للغاية .. احتوتهم الدهشة والحيرة عندما صرخ « أبو حسين » صرخة مدوية لفظ على أثرها انفاسه الأخيرة .

الدجاجة البيضاء

تنقلت بخطواتها الصغيرة البسيطة بين حجرات البيت .
رمقت بعينيها الصغيرتين ذلك الطبق الأبيض المسطح المركون فى إحدى زوايا حجرة النوم .. مدت يدها . رفعت ذيل فستانها لتضع حبات الشعير .. نظرت تحت « الكنبه » وأومأت إلى الدجاجة الوحيدة ذات الريش الأبيض الناعم .. راحت ترقبها نشوانه وهى تلتقط حبات الشعير بمنقارها الواهى .. أتت بطبق صغير مملوء بالماء ووضعته أمامها .. جاءت الأم لتحكم قبضتها على جناحى الدجاجة. ممسكة بيدها سكيناً غاية فى اللمعان .. راقبت الطفلة أمها حينما وضعت ساقى الدجاجة تحت قدمها اليمنى .. راحت تغرس حافة السكين فى الرقبة .. فانفرطت الدماء .. حاولت الدجاجة جاهدة بكل ما أوتيت من قوة ضعيفة الوقوف مرة أخرى .. فضاعت محاولاتها سدى .. أصابت الرعشة جسد الطفلة .. لمعت عيناها الصغيرتان للوهلة الأولى ثم إنخرطت فى صراخ حاد متواصل .. عرفت الدمعات الساخنة طريقها على خديها الناعمين الموردين .. صارت بقعة الدماء الناجمة عن الذبح أقرب ما تكون لشبح قاهر فاجر .. خلع أضلع الصغيرة .. وغرس رأسها فى أعمق بئر عرفه

التـاريخ .. زادت حـالتـهـا سـوءاً .. إرتمت حيث جـثـة الدجـاجـة .. قبلتـها .. مسـحت بذيل فسـتـانها تلك الدماء التى لطخت ثنايا الريش الأبيض .. نهـرتهـا الأم ومـازالت حـافـة السكين تقطر دمـاً رمقتها الصغيرة غاضبة .. لم تقبل طعاماً ولا شراباً .. ألقت بكل الدمى خارج حدود البيت .. حاول الأب جاهداً التخفيف من حدة ما تعانيه وكبح جماح غضبها الذى تناثر على كل شىء .

صارت تنظر إلى امها نظرات تحوى آلاماً مدفونة .. إحتوت الحيرة أبويها .

قال الطبيب بعد الفحص الطبى الدقيق :

- المسألة بسيطة .. مضادات حيوية .. مسكنات .. إعادة الكشف بعد اسبوع ..

مر الأسبوع ولحقته أسابيع اخرى وهى مازالت تكابد لوعة ألمها الذى كاد أن يفتك بها .. خارت قـوى الأب حزناً على طفلتـه الصـغـيره الوحيده .

قال له أحدهم :

- عليك أن تذهب إلى الشيخ الذى يقيم شرق المدينة .

قام لتوه قاصداً ذلك الشيخ الذى بادره قائلاً :

- « عليك بدجاجة بيضاء »

عاد إلى البيت حاملاً دجاجة بيضاء تشبه إلى حد كبير أختها الذبيحة .. وضعها أمام الطفلة التى تفحصتها جيداً .. وراحت بأصابعها الناعمة الرقيقة تداعب ريشها الأبيض الناصع .. تنهدت .. توقفت دمعاتها .. ندت عن وجهها الفاتن ابتسامه .. بحثت عن السكين .. القته بعيداً .. تنقلت بخطواتها البريئة البسيطة هنا وهناك .. اتت وفى يدها كل ما يحتويه الطبق الأبيض المسطح من حبات الشعير . وضعته أمام الدجاجة البيضاء .



النخلة القصيره

وقف أمام المرآة متأملاً صفحتها اللامعة .. تفحص ملامح وجهه جيداً . بدا اثر جرح قديم يتخلل التجاعيد العرضية أعلى حاجبيه .. وضع أصبعه حيث يكمن أثر الجرح .. إتجه إلى زوجته . طلب منها أن تتفحص ملامح وجهه . إنتابتها الدهشة .. وضعت يدها تختبر درجة حرارته . صرخ فى وجهها :

- أقول لك تفحصى وجهى جيداً ..

لامته بغضب :

- ألا يكفيك عشر سنوات وأنا انظر فى وجهك ليلاً ونهاراً .. !!

سألها عما إذا كان شيء يبدو من خلال التجاعيد العريضة أعلى حاجبيه .. ؟

ردت متعجبة :

- اثر جرح يبدو قديماً .... !!

إستدار إتجاه المرآة :

- ولكنه مازال يؤلمنى رغم مرور أكثر من أربعين سنة .

قالت له :

- إن الجرح قد إندمل منذ سنوات طويله .

وضع أصبعه على أثر جرحه القديم :

- نعم مضى عليه زمن طويل ولكنه حدث بالفعل . تنهدت زوجته وسألته عن سبب الجرح ؟

أخذ يفرك فى عينيه مسترسلاً :

- « لما كنا صغاراً ذهبنا حيث المقابر وكانت تتوسطها نخلة قصيرة تثمر بلحاً أصفر ذا قلب أحمر . على غير المعهود .. قالوا لنا إن جذور هذه النخلة تمتص دماء الموتى .. فيتلوّن قلب ثمرها بلون الدم .. نصحونا ألا نأكل بلح هذه النخلة .. فالموت والهلاك لمن ذاق منها ولو واحدة .. كنا قد وقفنا حول النخلة القصيرة .. تثاءبت زوجته .. بدت كأنها نائمة .. وضع يده على كتفها مستطرداً :

وقف أحدنا وكان ولداً شقياً معروفاً لدينا جميعاً بالخوض فى المغامرات .. كثيراً ما حكى لنا عن قصص مثيرة حدثت له مع العفاريت وأبناء الجن .

قال :

- ماذا سيحدث لو أكلنا من بلح هذه النخلة .. ؟

صرخت أنا فى وجهه قائلاً :

- إبتعد عنا .. أتريد أن تميتنا يا ابن الجنيَّه

قال :

- تراهننى أن اكل ثلاث منها .. أصابت الدهشة والحيرة عيون الأولاد ولاذوا جميعاً بالفرار خشية أن تصيبهم لعنة النخلة القصيرة .. لم يكن بالمكان إلا أنا وهو ومن حولنا المقابر وأمامنا النخلة القصيرة ..

كم تعطيننى لو أكلت الثلاث بلحات .. ؟

وضعت يدى فى جيبى وأخرجت القرش الوحيد .

قلت :

سأعطيه لك لو فعلت .

نبش بأظافره القوية الطويلة فى مقبرة كانت بجواره والتقط منها حجراً قذفه فتناثر البلح حول المقابر .. امسك بيده ثلاث بلحات .. إقترب منى . ووضع البلحة الأولى بين أسنانه آخذاً فى مضغها .

قلت له :

قل أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله لكى تموت مؤمناً .

إنتهى من مضغ البلحة الأولى ولم يحدث شىء . ضحك قبل أن يأكل البلحة الثانية .. إبتعدت عنه قليلاً لأترك ساقى للريح عندما يقع المحظور . إستعد لمضغ البلحة الثالثة .. وقبل أن يفعل نظر

إليَّ نظرة تحوى عدم الثقة فى أننى سأعطيه القرش .. طلبه منى أبيت إلا أن يتم مضغ البلحة الثالثة .

ولما وضعها فى فمه أيقنت بأننى بالقطع قد خسرت الرهان .. جعلت بينى وبينه مسافة .

لذت فراراً أما هو فقط إستشاط غضباً وطار خلفى .

لما عرقلتنى مقبرة صغيرة سقطت على الأرض فأصبت فى جبينى .

وضع يده حيث يكمن أثر جرحه القديم . إلتفت إلى زوجته فاذا بها قد راحت فى سبات عميق .

إنتابنى إحساس بالملل .. حانت منى إلتفاته تجاه المكتبه .. رحت أقلب بين الكتب .. إلتقطت رواية .. رحت أتصفح .. تساقطت بعض الأتربة فوق رأسى . نظرت لأعلى . فاذا بفأر كبير قد أخرج رأسه من خلال فتحة بين السقف والحائط .. أخذت أبحث عن أسهل طريقة للقضاء على هذا الفأر اللعين .. ألقيت الرواية جانبى .. خبأت نفسى تحت السرير .. ممسكاً بيدى عصا طويلة . متحيناً فرصة هبوطه على الأرض فأهوى بها على أم رأسه .. سمعت « خربشه » خلف دولاب ملابسى . فأيقنت أنه فى طريقه للتنزه على أرض الحجره .. تجرعت آيات الصبر متحفزاً له .. صار يتهادى ببطء شديد .. مد « بوزه » فى كوب الشاى الفارغ .. هويت بالعصا . فتناثر زجاج الكوب وولي هارباً .. دخلت أمى متلهفة أثر صرخة كانت مدفونة داخلى .

- إية الصراخ ده .. ؟

- مفيش .. ده فار .. !!

ضحكت أمى قائلة :

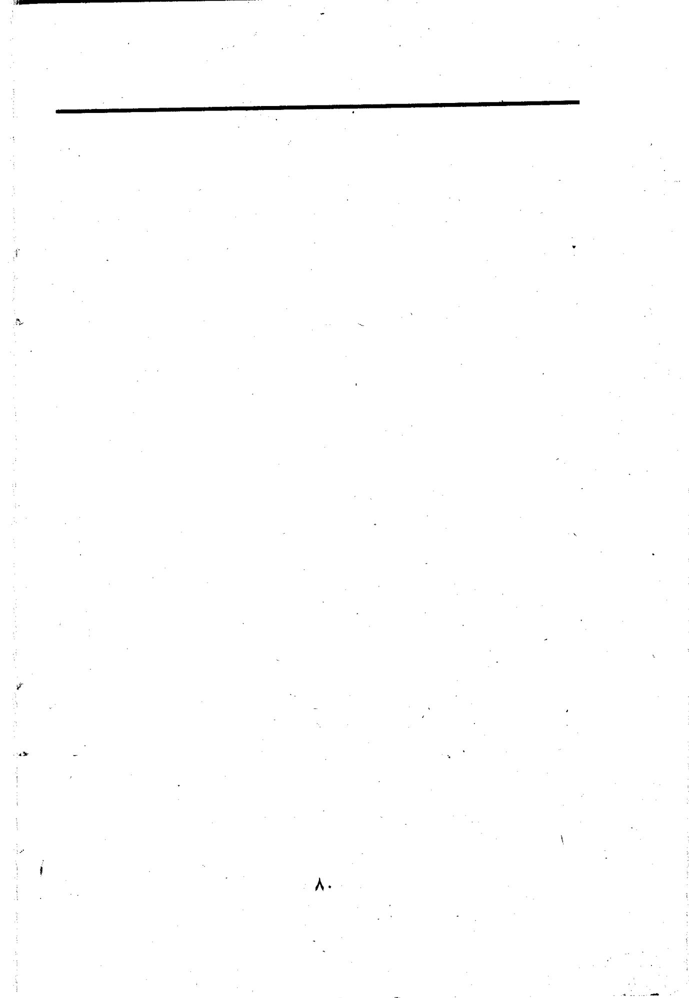
- فار .. !! قوم نام وإتغطى - الله يهديك -

كنت قد فردت غطائى .. خبأت وجهى خشية أن يقضم أذنى أو أنفى . صرت أسير خوف شديد .. نزعت عنى الغطاء .. تناولت الرواية .. ورحت أتخيل النهاية .. لمحته راقداً أعلى اللوح الزجاجى ينظر لى وكأننى مدين له بشىء بحذر تناولت العصا .. صرت أختلس النظر إليه بين الحين والآخر . حتى تحين الفرصة .. هويت بها على رأسه .. فتناثر اللوح الزجاجى أمامى .. قفز فوق المكتبة أختبأ بين الكتب .. رحت أفتش عسى أن تفتك به يدى .. جرى على الأرض جريت وراءه . فاصطدمت بباب الحجرة . وقعت على الأرض .. رمقتنى أمى بنظرة ساخطة . جلست فوق سريرى أبحث عن طريقة مناسبة .. ألا من طريقة ؟؟ !! صعدت فوق الدولاب قلت فى نفسى :

« سأنتظر دخوله بحذر .. وأهوى فوقه »

ها هو قد أتى .. تأهبت .. ارتطم المصباح الكهربائى برأسى .. زلفت قدمى اليمنى فهويت على الأرض.. أصبت فى جبينى . زاد غيظى « المصيدة » لا سبيل إلأها .. أسرعت تجاه المطبخ .. وضعت ثمرة طماطم مرشوشاً عليها سم فئران داخل المصيدة .. عاد يسير بحرص أكثر .. أخذ يصول ويجول حول المصيدة .. تمنيت أن يقبع داخلها إنتظرت طويلاً .. ظل ينظر حوله فى جميع الإتجاهات

كـأنه يبــغى الإطمـئنان على عـدم وجـودى .. أغـواه لون ثمـرة الطماطم.. وقف أمام فتحة المصيده .. عاد يطوف حولها .. وأخيراً .. دخل . فسدت فى وجهه أبواب الرحمة .. ظل يتخبط داخلها .. غمرتنى فرحة شديدة .. تبددت كل آلامى .. أخذت أهز المصيدة بين يدى .. حتى تصيبه الدوخة .. فيموت .. وضعت يدى فوق جبينى حـيث أصـبت .. نظرت إليـه نظرة تحـوى كل مـعـانى الغـضب واللعنة .. كـان ينظر إلى نظرة المسـترحم .. وضعت قـدمـاً فـوق الأخرى شـارداً . رحت ابحث عن أقـذر وسـيلة لقـتله .. قـررت أن أحرقـه .. إنطلقت تجاه المطبخ .. غـمرتنى نشوة الإنتصار .. عدت وبيـدى علبـة الثـقـاب والكيـروسين .. نظرت .. فلم أجده .. رحت أهوى فى كل أركان الحجرة والحجرات المجاورة باحثاً عنه .



حكاية البنت هبه

تنقلت بخفة بين أعواد البرسيم الخضراء . ومن خلفها الأفق المتراقص على نغمات ذلك اليوم الصافى . تحنت قدماها الصغيرتان بطين الأرض . بدت كما لو كانت فراشة رهيفة . يرقبها وهو فى الأرض المجاوره . بدت عيناها الصغيرتان كعينى عصفور يتعلم فن الطيران . أسرعت فأسرع خلفها . كانت كلما إستشعرت تعباً تلقى بنفسها بين يديه كيمامة حانيه.. تشابكت أصابعهما الرقيقة فأحتواهما اللون الأخضر الذى توج وجه الأرض . تحت شجرة «التوت» العتيقة أهداها قبله . إستقرت عيناه على صدرها الذى بدأت الأيام تتكور عليه . نظر إلى الشجرة . صعد . تساقطت حبات التوت . إحتفظت له بأفضل الحبات طعماً . جوار الساقية المهجوره جلسا .. تغنى باسمها .. فاجت رائحة الحروف عطراً . أحس بتعب .. توسد حجرها . تفحصت ملامح وجهه .. تنهدت .. تفوهت :

- « خايفة عليك يا محمد »

جعلت أصابعها تسير ببطء فوق الخطوط الطويلة الزرقاء لجلبابه «الكاستور» ذهاباً وجيئة .

قال لها :

« خايفة من إيه يا هبه » .. !

راح يداعب خصلة من شعرها كانت قد تعودت على العناد .

« أمنا الغولة » .. لما بتاخد حد بتغير شكله وملامحه .. أحس برغبة شديدة فى النوم .. راح فى سبات عميق .. فى صباح اليوم التالى إنتظرته فى نفس المكان والزمان لكنه لم يأت .. رسمت من طين الأرض بيتاً . اليوم وراء اليوم .. الشهر يجر الشهر العام يلهث خلف العام وهى تنتظر .. بدت ابنة العشرين ربيعاً تحوى بستاناً أنثوياً كامل النضج تفوح من خلاله نداءات إلى بستان مفقود .. مع قدوم ربيع جديد ومع تفتح الورود والأزهار جاءها « محمد » مرتدياً قميصاً مشجراً بألوان زاهية وبنطلوناً ملتصقاً بفخذيه .. تتخلل أصابعه سيجارة أجنبيه .. واضعاً إنسيالاً ذهبياً حول معصم يده اليمنى .. إقترب منها هاتفاً باسمها .. تساقطت بداخلها أشياء كثيرة . ذبل كل شىء حولها .. أحست باللاحياة .. إنتابتها رغبة قاتلة فى الجرى .

هزيمة روميو

وضعت جريدة الصباح على المقعد المجاور لمقعدى فى الأتوبيس. لحظات شردت خلالها كانت جميع المقاعد قد إمتلأت عدا المقعد المجاور لى ..

« تسمح اقعد »

نظرت لمن تحدثنى فاذا بها فتاة فارعة الطول . ممتلئة الجسد . واسعة العينين . تنبض بالأنوثة . ترتدى ثوباً أسود اللون . رحت أختلس النظر إليها بين اللحظة والأخرى .. إنتظرت عسى أن تبدأ هى بالحديث معى.. تحرك الأتوبيس محتشداً بالركاب . فردت الجريدة محاولاً ملامسة كتفها بيدى متصنعاً حسن النية .. فأحتوتنى بنظرة غامضة . رمقها المحصل الكهل مبتسماً .. جعلت قدمى اليمنى ملتصقة بقدمها اليسرى .. رحت أرقب رد فعلها بين الحين والآخر ... لم تحرك ساكناً ... أحسست بنشوة تسرى فى عروقى .. ثبّتُ عينى على كلمة « الصبر » مكتوبة بخط واضح على اللوح الزجاجى أمام السائق ... نعم ولكن فتاة مثل التى تجلس بجانبى جعلت صبرى ينفذ .. لم أعد أرغب إلا فى صحبتها معى فى أى مكان يضمنا معاً .. أنا وهى فقط .. ولكن كيف .. ؟

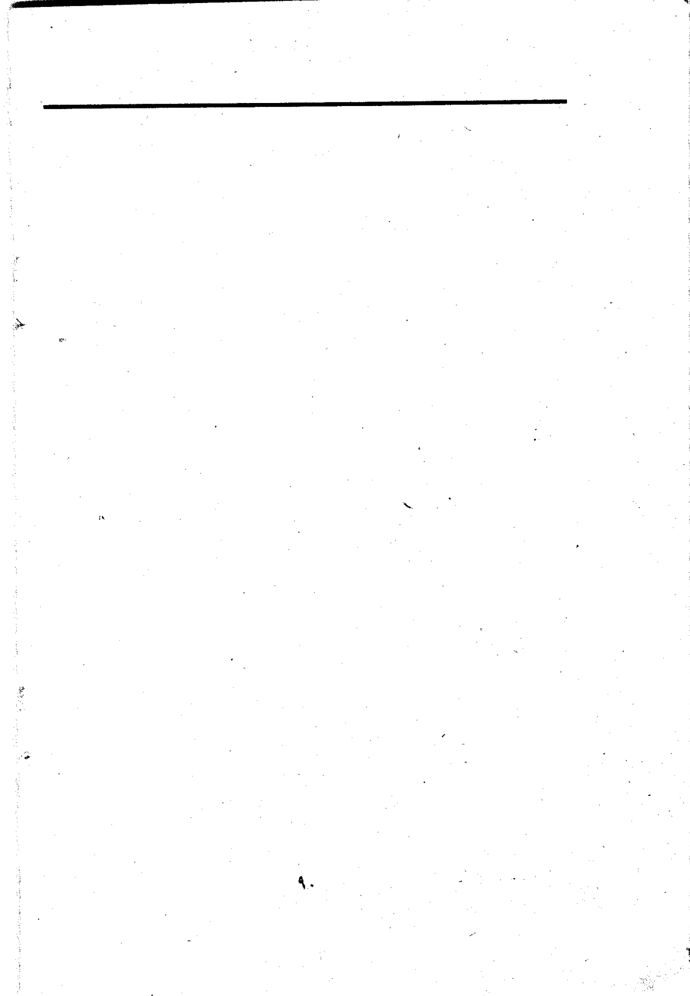
بحذر نظرت أمامى وخلفى . كل العيون تائهة تنظر إلى لا شىء

بعينه .. عبثت بأصابعى فى جيبى فأخرجت ورقة نقدية فئة الخمسة جنيهات .. بحرص شديد .. ودون أن يلاحظ أحد الركاب ما أنتوى فعله ألقيتها فى حجرها .. لما تيقنت هى أنى فعلت ذلك عن عمد قامت بوضع النقود فى جيبى .. دون أن تنطق بكلمة واحدة .. شعرت بأننى قد وقعت فى بحر من الحرج .. أخرجت علبة مناديلى آخذاً فى تجفيف وجهى ويدى .. رحت أقلب صفحات الجريدة .. بدقة .. لفت نظرى ما هو مكتوب فى الصفحة الأخيره .. " المرأة كالقلعة عليك أن تحاصرها " .. كل محاولات الحصار باءت بالفشل .. واضح أنها "...." لا ضرر فى محاولة أخرى .. عبثت مرة أخرى فى جيبى .. أخرجت ورقة نقدية حمراء فئة العشرة جنيهات .. قبل أن أضعها فى حجرها .. إنتبانى الخوف .. فالمرة السالفة مرت بسلام لكن من يضمن لى أن تمر هذه المرة على خير .. ؟

« على أى الأحوال هى محاولة والسلام ... »

بحرص شديد جداً ألقيت العشرة جنيهات فى حجرها .. إبتسمت بهدوء .. فأيقنت أن هذه الإبتسامة هى الهدوء الذى يسبق العاصفة .. دب الأتوبيس بالحركة .. عندما توقف أمسكت بالعشرة جنيهات ووضعتها بين نهديها .. نزلت مع من نزل من الركاب .. تجددت حيوتى .. نزلت خلفها .. إحتواها الشارع الطويل المزدحم بالمارة

.. تتبعتها عن بعد .. كانت تسير ببطء ملتفتة وراءها بين الحين والآخر .. تأكدت أنها صيد ثمين .. إبتعدت كثيراً .. أسرعت الخطى .. أسرعت خلفها .. إتجهت نحو شارع جانبى هادىء متفرع من الشارع الرئيسى المزدحم .. توقفت .. نظرت خلفها .. بحرص توقفت أمام أحد البيوت .. غمرتنى فرحة شديده .. يبدو أن الوقت قد حان .. قبل أن تدخل .. نظرت إلىَّ مبتسمه .. طرت نحوها وكلى ثقة فى مقدرتى الفائقة على الصيد .. وما إن إقتربتُ منها حتى كانت قد دخلت البيت وبكل قسوة أوصدت الباب فى وجهى .





الفهرست

رقم الإيداع ٩٧/٩٢٧٤

الترقيم الدولى I.S.B.N

977-10-1046-8

مطبعة أحمد صالح

٥ ش العش - خلف مسرح الجمهورية
عابدين - ت: ٣٩١٨٤٩٥
الإشراف الفنى أمين بشير